قصّة قصيرة

طريق الآلام

كلاريس ليسبكتور(*)

ترجمها عن الإنجليزيّة

خليل كلفت

كانت ماريا داس دوريس خائفة. لقد كانت خائفة بالفعل!

بدأ الأمر عندما لم تأت دورتها الشهريّة. أدهشها هذا لأنّها كانت في غاية الانتظام.

مرّ أكثر من شهرين، لكن شيئاً لم يحدث. ذهبتْ إلى طبيبة نساء. وكان تشخيصها وجود حملٍ واضح وبصورة قاطعة.

«هذا لا يمكن أن يكون!» صرختْ ماريا داس دوريس.

«لم لا؟ ألست متزوّجة؟»

«بلى، لكنّني عذراء، لم يَمْسَسْني زوجي أبداً. أوّلاً لأنّه شخص صبور، وثانياً لأنّه نصف عاجز. بالفعل».

حاولت طبيبة النّساء أن تجادل:

«مَنْ يدري، ربّما قمتِ أنتِ ذات ليلة بـ. . .»

«أبداً! أبداً على الإطلاق!».

«في هذه الحالة»، ختمت طبيبة النّساء، «لا أدري كيف أُفسِّر ما حدث. أنتِ الآن في نهاية الشهر الثّالث».

غادرتْ ماريا داس دوريس عيادة الدّكتورة ورأسها يدور. واضطرّتْ إلى التوقّف عند مطعم واحتساء بعض القهوة، لكي يكون بوسعها أن تفهم ما جرى.

ما هذا الّذي يحدث؟ استولى عليها غمّ شديد. غير أنّها غادرتِ المطعمَ أهدأ بالاً إلى حدّ ما.

وفيما كانت تسير عائدة إلى البيت، اشترتْ سُترة صغيرة جدّاً للطّفل، زرقاء، لأنّها كانت واثقة أنّه سيكون ولداً. بأيّ اسم تُسمّيه؟ كان هناك اسم واحد يمكنها أن تُسمّيه به: يسوع.

في البيت وجدتْ زوجها ينعم مسترخياً، يقرأ الجريدة. أخبرتْه بما حدث. فأجفل:

«إذن أنا القدّيس يوسف؟».

«صحيح»، جاء الردّ المقتضب.

وغرقا كلاهما في تفكير عميق.

أرسلت ماريا داس دوريس الخادمة لشراء الفيتامينات الّتي كانت طبيبة النّساء قد وصفتها لابنها.

ابنها المقدّس. لقد اختارها الربّ لتمنح العالم المسيحَ الجديد.

اشترتْ مَهْداً أزرق. وبدأت تحوك سُترات صغيرة وتصنع أقمطة ناعمة.

وفي هذه الأثناء كبُر بطنها. وكان الجنين يفيض حيويّة: كان يرفس بعنف. وفي بعض الأحيان تطلب من القدّيس يوسف أن يضع يده على بطنها ويتحسّس الابن وهو يتحرّك بالداخل بكلّ ذلك النّشاط. فتمتلئ عينا القدّيس بالدّموع. كان الجنين بسبيله إلى أن يغدو يسوعاً عنيفاً. وكانت تحسّ بأنّها تمتلئ نوراً.

روتْ ماريا داس دوريس قصّتها الرهيبة لصديقتها الصدوق. فأجفلتْ هذه بدورها:

«ماريا داس دوريس، يا له من مصير ممتاز لك!».

«ممتاز، نعم»، تنهدّت ماريا داس دوريس. «لكنْ ماذا يمكنني أن أفعل لأمنع ابني من السير في طريق الآلام؟».

«صَلِّي»، نصحتْها الصّديقة، «صَلِّي كثيراً».

وهكذا بدأتْ ماريا داس دوريس تؤمن بالمعجزات. فذات مرّة

(*) كلاريس ليسبكتور ١٩٢٥ - ١٩٧٧: كاتبة برازيليّة تنتمي إلى جيل ما بعد الحرب العالميّة الثّانية، وتعدّ أبرز كاتبة برازيليّة، بل أمريكيّة لاتينيّة معاصرة في رأي كثير من النقّاد. تعدّدت رواياتها منذ ظهرت روايتها الأولى في ١٩٤٣ حتّى صدور روايتها الأخيرة العاطفة حسب ج. هـ.، بالإضافة إلى مجموعاتها القصصيّة العديدة وكتاباتها للأطفال. وقصّة «طريق الآلام» هي من مجموعتها محطّات الجسد الصادرة في ١٩٧٤ (المترجم).

اعتقدت أنّها رأت مريم العذراء تقف إلى جانبها، وتبتسم لها. وفي مرّة أخرى، صنعت المعجزة بنفسها. كان زوجها مُصاباً بجرح مفتوح في ساقه، وقبّلتْ ماريا داس دوريس الجرح، وفي اليوم التالي اختفى الجرح ولم يترك أثراً.

كان الجوّ يزداد برودة، كانوا في شهر يوليو. وكان من المنتظر أن يولد الطّفل في شهر أكتوبر.

لكنْ أين كان بوسعهما أن يجدا إسطبلاً؟ لن يكون هذا ممكناً إلّا إنْ كانا يعيشان في مزرعة هناك في ريف ميناس جيرايس. ولهذا قرّرا الذهاب إلى مزرعة العمّة مينينيا.

كان ما يقلق ماريا داس دوريس هو أنّ الطّفل لن يُولد في الخامس والعشرين من ديسمبر.

كانت تذهب إلى الكنيسة كلّ يوم، وتجثو عدّة ساعات رغم بطنها المنتفخ. ثمّ اختارت مريم العذراء أُمّاً لطفلها في العماد. وهكذا اختارت المسيح أباً له في العماد.

مرّ الوقت. وصارتْ ماريا داس دوريس وحشيّة. وانتابتها رغبات غريبة، من قبيل الرغبة في تناول عنب مثلّج. وذهب القدّيس يوسف معها إلى المزرعة. وواصل ممارسة نجارته هناك.

ذات يوم خَشَتْ ماريا داس دوريس بطنها أكثر ممّا ينبغي. وتقيّأت وصرختْ. وفكّرت: لقد بدأ طريق آلام ابني المقدّس.

على أنّه بدا لها أنّ الطّفل سيُصلب عند بلوغ سنّ الرجولة إنْ هي تركته على اسم يسوع. فكان من الأفضل أن تمنحه اسم عمانويل. وهو اسم عادي. اسم جيّد.

انتظرتْ عمانويلَ جالسةً تحت شجرة جابوتيكابا. وراحت تفكّر: «عندما تأتي السّاعة، لن أصرخ، بل حسبي أن أقول آه، يا يسوع!»

وأكلتْ كرز الجابوتيكابا. أكلتْ، حتّى التّخمة، أُمّ يسوع.

العمّة، المستغرقة في الأمر تماماً، زيّنت الحجرة بستائر زرقاء. وصار الإسطبل مهيّأً بالرائحة الزكيّة الطالعة من أبقاره.

في اللّيل تطلّعتْ ماريا داس دوريس إلى السّماء المرصّعة بالنّجوم بحثاً عن النجمة الهادية. مَنْ سيكون المجوس الثلاثة؟ ومَنْ سيأتيه بالمرّ واللّبان؟

وكانت تقوم بجولات طويلة لأنّ الدكتورة نصحتها بالمشي كثيراً. وترك القدّيس يوسف لحيته الشيباء تنمو، وطال شعره لينسدل إلى كتفيْه.

كان من الصعب الانتظار. فالوقت لم يكن يمرّ. وكإفطار صنعتْ لهما العمّة كعكاً قليلاً تفتّت داخل فميْهما. وجعل البرد أيديهما صلبة حمراء.

في اللّيل أشعلوا النّار وجلسوا حولها يستدفئون. ووجد القدّيس يوسف لنفسه عصاً من عصيّ الرعاة. ولأنّه لم يغيّر ملابسه، فقد كانت تنبعث منه رائحة خانقة. وكانت سُترته من قماش قطنيّ رخيص. وكان يشرب الخمر بجانب الموقد. وكانت ماريا داس دوريس تشرب لبناً أبيض غليظ القوام، وفي يدها مسبحة.

ذهبتْ لتتفقّد الأبقار في الإسطبل. مبتهجةً ومُبْكِرةً. وأخذت الأبقار تخور. فابتسمت لها ماريا داس دوريس. وكان الكلّ متواضعاً: الأبقار والمرأة. كانت ماريا داس دوريس على وشك أن تصرخ. وقامت بترتيب القشّ على أرض الإسطبل، وأخذت تُعِدّ مكاناً يمكنها أن ترقد فيه عندما تأتي السّاعة، ساعة الإشراق.

ذهب القدّيس يوسف، ومعه عصا الرّاعي، ليتأمّل فوق الجبل. وأعدّتْ العمّة لحم الخنزير المشوي، وأكل الجميع كالمجانين. على أنّ الطّفل لم يشغل نفسه بالمجيء.

إلى أن أحسّت ماريا داس دوريس ذات ليلة، في الثّالثة صباحاً، بأوّل ألم. أشعلتْ المصباح اللّيلي، أيقظت القدّيس يوسف، أيقظت العمّة. لبسوا ثيابهم. وبمشعل يضيء الممرّ، شقّوا طريقهم عبر الأشجار صوب الإسطبل. وتلألأتْ نجمة ضخمة في السّماء السّوداء.

الأبقار، وقد أفاقت من نومها، غدتْ خائفة وأخذت تخور.

وسرعان ما عاودها الألم من جديد. وعضّتْ ماريا داس دوريس على يدها لئلاّ تصرخ. ولم يكن الفجر ليبزغ.

كان القديس يوسف يرتعش من البرد. وأما ماريا داس دوريس فكانت تنتظر راقدة على القشّ، تحت بطانية.

ثمّ عاودها ألم حادّ حقّاً. «آه، يا يسوع»، بهذا أنّتْ ماريا داس دوريس. «آه، يا يسوع»، بهذا بدا أنّ الأبقار تخور.

وكانت النّجوم في السّماء.

وعندئذٍ حدث الأمر.

وُلد عمانويل.

وبدا أنّ الإسطبل يسبح في النّور.

كان طفلاً قويّاً وجميلاً، وأطلق صرخة حادّة في جوّ الصّباح الباكر.

قطع القدّيس يوسف الحبل السُّريّ. وابتسمتْ الأمّ. وبكتْ العمّة.

ولا أحد يعرف ما إذا كان قد كُتب على هذا الطّفل أن يسير في طريق الآلام، الطّريق الّذي يسير فيه الجميع.